بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرة في



تأليف

محمد بن سعيد الأندلسي

عفا الله عنه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين أما بعد فهذا مختصرٌ وجيزٌ فيه أصول الأدلة والردود الجلية في قضية عظيمة وهي: العذر بالجهل في الشرك بالله تعالى[1] ... وهي فتنة العصر التي أجاز بها العاذرية أسلمة المشركين وعَدُّهم من جملة المسلمين ... فبعد أن كان الجهل مناطا للكفر في باب الشرك عند المتقدمين صار الجهل مانعا من إلحاق الأسماء والأحكام بالمشركين عند المتأخرين ... ولشدة حاجة المسلمين بمختصر جامع للأدلة والرد على أشهر الشبهات في هذه القضية العظيمة أحببت أن أكتب مذكرة في هذا البحث يكون مرجعاً للمسلمين في التأصيل العلمي الصحيح والرد على أهم شبهات العاذرية في الدفع عن إخوانهم المشركين، وأردت الإيجاز دون التطويل حتى يتسنى للمسلم استحضار الأدلة والكشف عن أهم الشبهات المثارة في هذه القضية العظيمة التي صارت في هذا الزمان محل خلاف ونزاع بعد أن كانت محل إجماع ووفاق ... وأسأل الله التوفيق والسداد وأستمد منه العون والرشاد ...

« اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون » [2].

[1] وحقيقة دعوى العاذرين: أن من صرف العبادة لغير الله تعالى وهو يجهل أن هذا العمل شرك بالله ويحسب أنه من القربات ويظن أنه يحسن به صنعا أنه مسلم معذور بجهله ولا يجوز تكفيره حتى يُعلَّم حقيقة فعله وتقام عليه الحجة وتكشف له الشبهة ثم يقصد الشرك بالله عالما به معاندا لأمر ربه.

[[2]] رواه مسلم برقم 67 من حديث عبد الله بن عباس.

الباب الأول

الأدلة على عدم العذر بالجهل في الشرك بالله

المطلب الأول: الأدلة من القرآن

أقول أنَّ كتاب الله كله في تكفير المشركين وتوصيفهم بالشرك والضلال ونفي الهداية عنهم وإثبات العماية لهم قبل الرسالة وبعدها، ولم يعتبر الخطأ أو التأويل أو التقليد أو الجهل كعذر في ضلال الشرك بل أثبت العذاب للمشركين مع نفى وسائل الإدراك عنهم كالسمع والبصر والفؤاد، ولم يشترط قصد الكفر والشرك والعناد بل ذكر أنهم يحسبون أنهم مهتدون ونسبهم إلى فريق الضلالة وجعل الشرك قرين الجهل في مواضع كثيرة في كتاب الله، وغير ذلك من الدلائل والبينات المتنوعة في كفر المشركين والحكم عليهم بالعذاب مع الجهل والخطأ في إصابة الحق والتقليد للآباء، بل قطع الله في كتابه أنه لا عذر لأحد أخطأ أو جهل التوحيد، وهاك يا طالب الحق الآيات الواضحات والدلائل البينات على نفي العذر لمن أشرك بالله تعالى:

وفيه أنه لا يُشترط قصد الكفر بل الجاهل والمعاند سواء

۞ قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأعراف 30]، وفيه أنه لا يُشترط قصد الكفر بل الجاهل والمعاند سواء.

قال الزجاج:" يدل على أن قوماً ينتحلون الإسلامَ ويزعمونَ أن من كان كافراً وهو لَا يعلم إنَّه كافر فليس بكافرٍ مُبْطِلُون لأمر نِحْلتِهِمْ، لأن الله جل ثناؤُه قد أعلمنا أنهم يَحْسَبون أنهمْ مهتدون، ولا اختلاف بين أهل اللغة في أن الحُسْبَانَ ليس تأْويله غيرَ مَا يُعْلم من معنى حسب"[1].

وقال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله وجارُوا عن قصد المحجة، باتخاذهم الشياطين نُصراء من دون الله، وظهراء جهلا **منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق**، وأن الصواب ما أتوه وركبوا، **وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعمَ أن الله لا يعذِّب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ وهو يحسَبُ أنه هادٍ. وفريق الهدى، فَرْقٌ وقد فرَّق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية**"[2].

✿ وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾[التوبة: 6]، قال الطبري: يقول -تعالى ذكره- لنبيه وإن استأمنك يا محمد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم أحد ليسمع كلام الله منك وهو القرآن الذي أنزله الله عليه ﴿فَأَجِرۡهُ﴾يقول: فأمّنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾، يقول: ثم رده بعد سماع كلام الله إن هو أبى أن يسلم ولم يتعظ بما

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجاج 2/ 331

[2] تفسير الطبري 12/388

تلوته عليه من كلام الله فيؤمن إلى مأمنه .... ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن وردك اياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم من أجل أنهم: قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم لتركهم الإيمان بالله "[1].

وقال البغوي: ﴿ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ﴾ فيما له وعليه من الثواب والعقاب ... ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾أي: لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله. قال الحسن: هذه الآية محكمة إلى قيام الساعة" [2].

✡ وقوله تعالى: ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾[البينة: 1].

قال البغوي:" ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾، وهم اليهود النصارى، وَالْمُشْرِكِينَ وَهُمْ عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ، ﴿ مُنفَكِّين﴾مُنْتَهِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ زَائِلِينَ مُنْفَصِلِينَ، يُقَالُ: فَكَكْتُ الشَّيْءَ فَانْفَكَّ أَيِ انْفَصَلَ،﴿ مُنفَكِّين ﴾ لَفْظُهُ مُسْتَقْبَلٌ وَمَعْنَاهُ الْمَاضِي أَيْ حَتَّى أَتَتْهُمُ الحجة الواضحة، يعني مُحَمَّدٍ ﷺ أتاهم بالقرآن فبيّن لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإسلام والإيمان، فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيمَنْ آمَنَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، **أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْكُفْرِ حَتَّى أَتَاهُمُ الرَّسُولُ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَآمَنُوا فَأَنْقَذَهُمُ اللهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالَةِ**"[3].

---

[1] تفسير الطبري 138/14

[2] تفسير البغوي319/2.

[3] تفسير البغوي 290/5.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف179]، قال مجاهد: «﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ **قال: لا يفقهون بها شيئًا من أمر الآخرة** ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾، **الهدى** ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾ **الحق، ثم جعلهم كالأنعام سواءً، ثم جعلهم شرًا من الأنعام، فقال:** ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾، **ثم أخبر أنهم هم الغافلون**»[1].

فعطل الله عن المشركين وسائل الإدراك وجعلهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل، وجعلهم من أهل الغفلة ومن أهل النار.

وقال تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[الحج9]، **فجعل الله مصير الجاهل الذي يُضل** الناس بغير علم نار جهنم، فأثبت الله الضلال مع الجهل ورتب عليه عذاب الحريق، قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن الناس من يخاصم في توحيد الله وإفراده بالألوهة بغير علم منه بما يخاصم به ﴿وَلَا هُدٗى﴾يقول: وبغير بيان معه لما يقول ولا برهان"[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[المؤمنون117]، قال يحي بن سلام

[1] رواه الطبري برقم 15448

[2] تفسير الطبري 573/18

﴿ لا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾: لا حجة له به"[1] ، أي سماهم الله كافرين لعبادتهم غير الله بغير حجة ولا علم أي بجهل، وفيه دلالة صريحة على تكفير المشركين الجاهلين.

❁ وقال تعالى:﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء 24]، ووجه الدلالة أن الله ذكر أن سبب إعراض الكفار عن الحق هو جهلهم وعدم معرفتهم به، قال الطبري:" يقول: بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الصواب فيما يقولون ولا فيما يأتون ويذرون، فهم معرضون عن الحق جهلا منهم به وقلّة فهم"[2].

❁ وقال تعالى:﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[الحجرات 2]، وفيه دلالة أن العبد قد يأتي من الأقوال أو الأعمال أو الأفعال ما يحبط عمله بها وهو لا يعلم ولا يدري، قال الطبري:" يقول: ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ وأنتم لا تعلمون ولا تدرون"[3]، وقال السمعاني:" وَقَوله: ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾أَي: لَا تعلمُونَ بحبوط الْأَعْمَال"[4].

❁ وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة 171]، وفيه أن تقليد الآباء الذين لا

[1] تفسير يحي بن سلام 290/1
[2] تفسير الطبري 427/18
[3] تفسير الطبري 281/22
[4] تفسير السمعاني 215/5

يعقلون هو مستمسك المشركين في الاتباع ولم يعذرهم الله بذلك بل كفرهم فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، قال ابن جرير:" يقول تعالى ذكره لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تَتَّبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما يأمرُكم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئًا، ولا هم مصيبون حقًّا، ولا مدركون رشدًا؟ وإنما يَتّبع المتبعُ ذا المعرفة بالشيء المستعملَ له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه ـ فيما هو به جاهل ـ إلا من لا عقل له ولا تمييز"[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام 137]، فسماهم الله مشركين قبل مجيء الرسالة، وفيه دلالة واضحة أن اسم المشرك يثبت قبل الرسالة، قال ابن تيمية:" فاسم المشرك ثبت قبل الرسالة؛ فإنه يشرك بربه ويعدل به ويجعل معه آلهة أخرى ويجعل له أندادا قبل الرسول ويثبت أن هذه الأسماء مقدم عليها"[2].

وقال تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾[النمل 43]، فألحقها بالقوم الكافرين قبل بلوغ الرسالة وقبل أن يرسل إلى ملكتهم بلقيس كتاب سليمان عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل 25]، فأخبر الله أن من أضل الناس بغير علم يحمل وزرهم يوم القيامة، فدل على أن

[1] تفسير الطبري 308/2
[[2]] مجموع الفتاوى 38/20

الجاهل له أوزار وهو مكلف غير معذور، خلافا لما يقوله الجهمية أن الجهل مانع من التكليف، ويدل عليه ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[1].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل 85]، **فسمى الله جهلهم بآيات الله ظلما ولم يسمه عذرا.**

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[الحج 71]، فمن عبد غيره من الأرباب والطواغيت جهلا سماه الله ظالما وليس معذورا قال السمعاني:" قَوْله تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أَي: حجَّة، وَقَوله: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يَعْنِي: أَنهم فعلوا مَا فعلوا عَن جهل لَا عَن علم، وَقَوله: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، أَي: مَانع من الْعَذَاب"[2]، قال أبو حفص سراج الدين الدمشقي:" ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ حجة: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ **عن جهل وليس لهم به دليل عقلي فهو تقليد**

[1] رواه مسلم برقم 2674

[2] تفسير السمعاني 455/3

وجهل، والقول الذي هذا شأنه يكون باطلاً: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، أي وما للمشركين من نصير مانع يمنعهم من عذاب الله"[1]، وفي الآية دلالة أن الشرك قرين الجهل.

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[العنكبوت 8]، قال السمعاني:" وَقَوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ **إِنَّمَا قَالَ هَذَا؛ لِأَن الشّرك كُله عَن جهل، فَإِن الْعَالم لَا يُشْرك بِاللَّه"**[2].

وقال تعالى:﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[الكهف 5]، وقد وصف الله النصارى بالجهل في نسبة الولد لله تعالى وتقدس عن ذلك ولم يكن لهم عذر في ذلك، قال البغوي: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أَيْ قَالُوهُ عَنْ جَهْلٍ لَا عَنْ عِلْمٍ"[3] ومثل ذلك قوله تعالى في مشركي قريش: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف 20].

[1] اللباب في علوم الكتاب 146/14،
[2] تفسير السمعاني 168/4
[3] تفسير البغوي 172/3

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[الأعراف 173]، وهذه الآية أصل في نفي العذر بالتقليد والجهل في الشرك بالله، قال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: شهدنا عليكم أيها المقرُّون بأن الله ربكم، كيلا تقولوا يوم القيامة: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ **إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في غفلة منه** ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ اتبعنا منهاجهم ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا ﴾، بإشراك من أشرك من آبائنا، واتباعنا منهاجَهم **على جهل منا بالحق**؟ ويعني بقوله: ﴿ بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ بما فعل الذين أبطلوا في دَعواهم إلهًا غير الله"[1].

وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[الروم29]. قال الطبري: " **اتبعوا أهواءهم، جهلا منهم لحقّ الله عليهم**، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته، ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ يقول: فمن يسدّد للصواب من الطرق، يعني بذلك من يوفق للإسلام مَن أضلّ الله عن الاستقامة والرشاد"[2]، وفي الآية أن الله جمع بين الظلم ـ الذي هو الشرك في الآية ـ واتباع الهوى والجهل فهم قرناء.

[1] تفسير الطبري 351/13

[2] الطبري 97/20

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء 213]، قال السمعاني:" روي أن الْمُشْركين قَالُوا لَهُ: ارْجع إِلَى دين آبَائِك، فَإِن أردْت المَال جمعنَا لَك المَال، وَإِن أردْت الرِّئَاسَة قلدناك الرِّئَاسَة علينا، فَأنْزل الله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ أَي: فِي النَّار"[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾[الزمر 64]، قال حرب الكرماني في مسائله «قُلْتُ لِإِسْحَاقَ: الرَّجُلُ يَقُولُ لِلْمُشْرِكِ إِنَّهُ رَجُلٌ عَاقِلٌ؟ قَالَ: لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: لِأَنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عُقُولٌ»[2] ... وهذا فيه نفي العقل وإثبات الشرك من الإمام حرب الكرماني، أي أن الجهل قرين الشرك.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[البقرة 118] عَنِ الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَوْلُهُ: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾، **قَالَ:« هُوَ قَوْلُ كُفَّارِ الْعَرَبِ وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوُ ذَلِكَ»**[3] وقال السمرقندي :" قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: **لا يعلمون توحيد الله تعالى، ومعناه: وقال**

[1] تفسير السمعاني 69/4

[2] مسائل حرب 881/2.

[3] **رواه ابن أبي حاتم ،1141**

الجهـــال مـــن النـــاس- وهـــم الكفـــار-"[1]، فســـمى الله مشـــركي قـــريش بالذين لا يعلمون فدل على أن الشرك قرين الجهل.

❁ وقولـــــــــــه تعـــــــــــالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الـروم7]، قَـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ يَعْنِـي:« الْكُفَّـارُ، يَعْرِفُـونَ عُمْـرَانَ الـدُّنْيَا، وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَّالٌ»[2].

❁ وقـــــــــال تعـــــــــالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[الأنعـــام 111]، قـــال ابـــن أبـــي زمنـــين: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ **أَي: لَا يعلمُـونَ. وَقَولـه: {أَكْثَـرهم} يَعْنِـي: مَـنْ ثَبَـتَ عَلَـى الْكُفْـرِ مِـنْهُم."**[3]، وفيه دلالة أن الجهل قرين للشرك وليس رافعٌ له بل يجامعه.

❁ ومـــن الآيـــات البينـــة أن الله قـــد وصـــف أقـــوام الأنبيـــاء بالجهـــل والشـــرك فـــدل علـــى أن الجهـــل قـــرين الشـــرك وممـــا ورد فـــي كتـــاب الله مـــن ذلك:

❁قولـــــــــــه تعـــــــــــالى:﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[هـــــــود 91]، فقـــــــــــوم شـــعيب لـــم يفقهـــوا أصـــل دعـــوة شـــعيب ولـــم يُعـــذروا بعـــدم الفقـــه فأخـــــــــذهم العـــــــــذاب ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾[هـــــــــــــود 94].

---

[1] تفسير السمرقندي 81/1

[2] تفسير بن كثير 305/6.

[3] تفسير ابن أبي زمنين 92/2

❁ وقوله تعالى في قوم نوح:﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾[هود 29].

❁ وقوله تعالى في قوم هود: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾[الأحقاف 23].

❁ وقوله تعالى في قوم لوط:﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾[النمل 55].

❁ وقوله تعالى في قوم قريش: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾[الزمر 64].

۞ ومن الأدلة على نفي العذر أن الله تعالى لا يقبل العذر من المعتذرين يوم القيامة مع اختلاف المعاذير كما سبق معنا في آية الميثاق وفي قوله:﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب 68].

❁ وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾[الأنعام 23]، عن قتادة: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ ﴾ قال: معذرتهم"[1].

[1] تفسير الطبري 13138

❁ وقوله تعالى:﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾[الروم 57]، قال ابن أبي زمنين:" ﴿ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾المُشْركين ﴿ مَعْذِرَتُهُم﴾"[1].

❁ وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[الكهف105].

قال الطبري:" **وهذا من أدل الدلائل على خطأ قول من زعم أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته،** وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، أن سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهب ضلالا وقد كانوا يحسبون أنهم محسنون في صنعهم ذلك، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآيات ربهم. ولو كان القول كما قال الذين زعموا أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يعلم، لوجب أن يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر الله عنهم أنهم كانوا يحسبون فيه أنهم يحسنون صنعه، كانوا مثابين مأجورين عليها، ولكن القول بخلاف ما قالوا، فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم بالله كفرة، وأن أعمالهم حابطة"[2].

وقال ابن منده: **ذِكْرُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْمُجْتَهِدَ الْمُخْطِئَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ , عَزَّوَجَلَّ ووَحْدَانِيَّتِهِ كَالْمُعَانِدِ** قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ضَلَالَتِهِمْ وَمُعَانَدَتِهِمْ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا فَقَالَ: كَفَرَةُ أَهْلُ الْكِتَابِ كَانَ أَوَائِلُهُمْ عَلَى

---

[1] تفسير ابن أبي زمنين 137/4

[2] تفسير الطبري 128/18

حَقٍّ، فَأَشْرَكُوا بِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ وَابْتَدَعُوا فِي دِينِهِمْ، وَأَحْدَثُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ يَجْتَمِعُونَ فِي الضَّلَالَةِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى، وَيَجْتَهِدُونَ فِي الْبَاطِلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. وَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مِنْهُمْ أَهْلُ حَرُورَاءَ"[1].

والاجتهاد في الأصول غير مقبول، والمخطئ في ذلك غير معذور بالإجماع، قال أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني:" ومن قول أهل السنة: أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، لأن الخوارج اجتهدوا في التأويل فلم يعذروا إذ خرجوا بتأويلهم عن الصحابة فسماهم عليه الصلاة والسلام مارقين من الدين، وجعل المجتهد في الأحكام مأجورا وإن أخطأ"[2]، وهذا إجماع على أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، فكيف بمن أداه اجتهاده إلى الشرك!!، قال اللالكائي «**أجمع أهل السنة و الجماعة على أنّه لا اجتهاد في مسائل الاعتقاد**، و أنه لا مجال للرأي وإعمال العقل فيها، و أنّه لا يسمع مسلم فيها إلا التسليم و الإتباع لعقيدة السلف الصالح، وأنّه من لم يسعه ما وسعهم فلا وسّع الله عليه»[3].

وعليه فكل من تلبس بالشرك مختاراً يُسمى مشركاً في كل أحواله عالماً كان أو جاهلاً، مُعانداً كان أو مُعرضاً، متأولاً كان أو مُلَبَّساً عليه يحسب أنه من المهتدين، كان قبل الرسالة أو بعدها، حديثُ عهدٍ بإسلام أو يعيش في نائية، إذْ الحجة قائمة عليه بالفطرة والميثاق وهي لا تنفك عنه في جميع هذه الأحول، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا

[1] التوحيد لابن منده 314/1

[2] الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ ص،121

[3] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 315

﴾[الشمس] قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فبين لها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير أو شرّ أو طاعة أو معصية"[[1]]، وعن ابن عباس، قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ يقول: بيَّن الخيرَ والشرَّ " وقال :" علَّمها الطاعة والمعصية"[[2]]، وقال ابن منده :" ذِكْرُ اسْتِدْلَالِ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ رَسُولٌ **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِيمَانِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قَبْلَ الرِّسَالَةِ:** ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3].

المطلب الثاني: الأدلة من السنة والأثر

وكذلك قد ورد في السنة النبوية أن جاهل التوحيد كافر والعلم شرط في صحة الشهادة، وأنه لا عذر بالجهل في أصل الإسلام ومن تلبس بالشرك فهو مشرك معذب ولو كان قبل الرسالة وهذه بعض الآثار:

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ[4]»، وفيه دلالة أن من جهل التوحيد ومعنى لا إله إلا الله دخل النار، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[الزخرف86]، وقال السمعاني :" وَقَوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ مَعْنَاهُ على

[[1]] تفسير الطبري 454/24

[[2]] نفس المصدر

[[3]] كتاب التوحيد 306/1

[4] رواه مسلم 26

القَـوْل الأول: إِلَّا لمـن شـهد بِـالْحَقِّ، وَهُـوَ مـن شـهد بِـلَا إِلَـه إِلَّا الله وَقَولـه: ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ظَاهر الْمَعْنى، وَمَعْنَاهُ: **يشْهدُونَ عَن علم**"[1].

وعَـن ابْـنِ عَبَّـاسٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمَـا، «صَـارَتِ الأَوْثَـانُ الَّتِـي كَانَـتْ فِـي قَـوْمِ نُـوحٍ فِي العَـرَبِ بَعْـدُ، أَمَّـا وَدٌّ كَانَـتْ لِكَلْـبٍ بِدَوْمَـةِ الجَنْـدَلِ، وَأَمَّـا سُـوَاعٌ كَانَـتْ لِهُـذَيْلٍ، وَأَمَّـا يَغُـوثُ فَكَانَـتْ لِمُـرَادٍ، ثُـمَّ لِبَنِـي غُطَيْـفٍ بِـالْجَوْفِ، عِنْـدَ سَـبَإٍ، وَأَمَّـا يَعُـوقُ فَكَانَـتْ لِهَمْـدَانَ، وَأَمَّـا نَسْـرٌ فَكَانَـتْ لِحِمْيَـرَ لِآلِ ذِي الكَـلاَعِ، أَسْـمَاءُ رِجَـالٍ صَـالِحِينَ مِـنْ قَـوْمِ نُـوحٍ، فَلَمَّـا هَلَكُـوا أَوْحَـى الشَّـيْطَانُ إِلَـى قَـوْمِهِمْ، أَنِ انْصِـبُوا إِلَـى مَجَالِسِـهِمُ الَّتِـي كَـانُوا يَجْلِسُـونَ أَنْصَـابًا وَسَـمُّوهَا بِأَسْـمَائِهِمْ، فَفَعَلُـوا، فَلَـمْ تُعْبَـدْ، **حَتَّـى إِذَا هَلَـكَ أُولَئِـكَ وَتَنَسَّـخَ العِلْـمُ عُبِـدَتْ**»[2] ومعنـاه أن عبـادة الأصـنام كانـت بعـد ذهـاب العلم وحلول الجهل فالشرك قرين الجهل.

وعَـنْ أَنَـسٍ أَنَّ رَجُـلًا قَـالَ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، أَيْـنَ أَبِـي؟ قَـالَ: «فِـي النَّـارِ»، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»[3].

وعَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ، قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «اسْـتَأْذَنْتُ رَبِّـي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»[4].

وعـن جَـابِر بْـن عَبْـدِ اللهِ، يَقُـولُ: " دَخَـلَ النَّبِـيُّ ﷺ يَوْمًـا نَخْـلًا لِبَنِـي النَّجَّـارِ، فَسَـمِعَ أَصْـوَاتَ رِجَـالٍ مِـنْ بَنِـي النَّجَّـارِ مَـاتُوا فِـي الْجَاهِلِيَّـةِ يُعَـذَّبُونَ فِـي قُبُـورِهِمْ، فَخَـرَجَ النَّبِـيُّ ﷺ فَزِعًـا، فَـأَمَرَ أَصْـحَابَهُ أَنْ يَتَعَـوَّذُوا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ "[5].

---

[1] تفسير السمعاني 120/5.

[2] رواه البخاري برقم 4920

[3] رواه مسلم برقم 203

[4] رواه مسلم برقم 976

[5] رواه احمد برقم 14152 هو في "مصنف" عبد الرزاق (6742) ،ومن طريقه أبو عوانة في الجنائز كما في"الإتحاف"477/3. وأخرجه البزار (871- كشف الأستار) ، وأبو يعلى (2149) ، والطبراني في "الأوسط" (4625) ، والبيهقي في "إثبات عذاب القبر" (204) من طرق عن أبي الزبير، به.و

وعَــنْ عَائِشَـــةَ، قَالَــتْ: قُلْــتُ: يَــا رَسُـــولَ اللهِ، ابْــنُ جُـــدْعَانَ كَــانَ فِــي الْجَاهِلِيَّـــةِ يَصِــلُ الـــرَّحِمَ، وَيُطْعِــمُ الْمَسَــاكِينَ، فَهَــلْ ذَاكَ نَافِعُــهُ؟ قَــالَ: " لَا يَــا عَائِشَــةُ، إِنَّــهُ لَــمْ يَقُــلْ يَوْمًــا: رَبِّ اغْفِــرْ لِــي خَطِيئَتِــي يَــوْمَ الــدِّينِ "[1]، وابــن جــدعان كــان يــأتي بــبعض الشــعائر فــي الجاهليــة ولــم تنفعــه مــع الشــرك بالله.

وهـــذه الآثـــار فيهـــا دلالـــة علـــى أن النبـــي ﷺ حكـــم لهـــؤلاء الجـــاهليين المشـــركين بالعـــذاب ولـــم يعـــذرهم بالجاهليـــة الجهـــلاء، ولـــو كـــان الجهـــل عذرا لعذر به أباه وأمه.

وعَــنْ أَبِــي أُمَامَــةَ قَــالَ: قَــالَ عَمْــرُو بْــنُ عَبَسَــةَ السُّــلَمِيُّ: «كُنْــتُ وَأَنَــا فِــي الْجَاهِلِيَّــةِ أَظُــنُّ أَنَّ النَّــاسَ عَلَــى ضَــلَالَةٍ، وَأَنَّهُــمْ لَيْسُــوا عَلَــى شَــيْءٍ وَهُــمْ يَعْبُــدُونَ الْأَوْثَــانَ»[2]، وفــي روايــة: «إِنِّــي كُنْــتُ فِــي الْجَاهِلِيَّــةِ أَرَى النَّــاسَ عَلَــى ضَـــلالَةٍ، وَلا أَرَى الأَدْيَـــانَ شَـــيْئًا»[3]،وفيـــه أن الجهـــل قـــرين الضـــلالة والشرك.

وعَــنْ عَبْــدِ اللَّهِ بْــنِ عَمْــرِو بْــنِ العَــاصِ قَــالَ: سَــمِعْتُ رَسُــولَ اللَّهِ ﷺ يَقُــولُ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْــبِضُ العِلْــمَ انْتِزَاعًــا يَنْتَزِعُــهُ مِــنَ العِبَــادِ، وَلَكِــنْ يَقْــبِضُ العِلْــمَ بِقَــبْضِ العُلَمَــاءِ، حَتَّــى إِذَا لَــمْ يُبْــقِ عَالِمًــا اتَّخَــذَ النَّــاسُ رُؤوسًــا جُهَّــالًا، فَسُــئِلُوا فَــأَفْتَوْا بِغَيْــرِ عِلْــمٍ، فَضَــلُّوا وَأَضَــلُّوا»[4]، ووجــه الدلالــة أن النبي ﷺ لم يعذر المقلدة لرؤوس الجهل بل وصفهم بالضلال.

[1] وأخرجه مسلم (214) (365) ، وأحمد برقم 24621 واللفظ له وأبو عوانة 1 / 100، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (4357) ، وابن حبان (331) ، وابن منده في "الإيمان" (969) ، وشُهدة الإبرية مسندة بغداد في "العمدة" (91) من طريق عبد الله بن

[[2]] رواه مسلم برقم 294

[[3]] رواه البغوي في شرح السنة 322/3

[4] رواه البخاري برقم 100 ومسلم برقم 13

۞ وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا عذر لأحد في ضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة، فقد بينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر»[1].

۞ وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾[الانفطار6]فَقَالَ: «غَرَّهُ وَاللَّهِ جَهْلُهُ»[2]، **وعَنْ رَبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ فِي قَوْلِهِ**: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: 6] "، **قَالَ: «الْجَهْلُ»**[3].

۞ وعَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ أَبِي مُوسَى، وَعَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَا: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامٌ، يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ»[4]، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " **يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي خَفْقَةٍ مِنَ الدِّينِ، وَإِدْبَارٍ مِنَ الْعِلْمِ**»[5].

وإذا أضفنا إليه ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ طَاغِيَةِ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ﴾[6]، وعن أبي هريرة ؛ قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر:2]، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ليخرجن منه

---

[1] شرح السنة للبربهاري 36/1
[2] رواه ابن أبي حاتم برقم 19174
[3] مصنف ابن أي شيبة 34864
[4] خلق أفعال العباد 80/1
[5] وراه أحمد 14954
[6] رواه البخاري برقم **7116** ومسلم رقم 2906

أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا﴾[1] ... فبمجموع هذه الآيات دلالة على أن آخر الزمان يعم فيه الشرك والجهل.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا لَا يقلدنَّ أَحَدُكُمْ دِينَهُ رَجُلًا، إِنْ آمَنَ آمَنَ، وَإِنْ كَفَرَ كَفَرَ، فَإِنَّهُ لَا أُسْوَةَ فِي الشرِ»[2] فتأمل قوله وإن كفر كفر فجعل التقليد والمتابعة على الكفر كفر ولم يعذره بذلك.

وعن الْمُؤَمَّلِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَارَةَ بْنَ زَاذَانَ يَقُولُ:« بَلَغَنِي أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ، **فَيُقَالُ لَهُمْ: إِنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ،** قَالَ: وَبَلَغَنِي أَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنْتُمْ خُصَمَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »[3]، وفيه دلالة ظاهرة على وقوع الشرك من حيث لا يعلم المرء ويكون مؤاخذ به.

وأخرج عبد بن حميد وَابْن جرير عَن قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾قَالَ: من بعد مَا أَرَاهُم الله من إحْيَاء الْمَوْتَى وَمن بعد مَا أَرَاهُم من أمر الْقَتِيل ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾**ثمَّ عذر الله الْحِجَارَة وَلم يعْذر شقي ابْن آدم** فَقَالَ ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾"[4].

عن عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الْحَلْقَةُ؟» قَالَ: هَذِهِ مِنْ الْوَاهِنَةِ. قَالَ: «انْزِعْهَا

[1] رواه الحاكم في "مستدركه"، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه".

[2] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (9 166) برقم (8764. 8767)، وقال الهيثمي في المجمع (1 180): رجاله رجال الصحيح.

[3] رواه عبد الله في السنة برقم 853.

[4] الدر المنثور 197/1.

فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا»[1]، قال محمد بن عبد الوهاب: "فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة"[2]

ووجه الدلالة أنه إذا كان الرجل لم يُعذر بالجهالة في أمرٍ مِن أمور الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر؟

وعَنْ خَالِدِ بْنِ ثَابِتٍ الرَّبْعِيِّ, قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ شَابٌّ قَدْ قَرَأَ الْكِتَابَ وَعَلِمَ عِلْمًا, وَكَانَ مَغْمُورًا, وَأَنَّهُ طَلَبَ بِقِرَاءَتِهِ الشَّرَفَ وَالْمَالَ, وَأَنَّهُ ابْتَدَعَ بِدْعَةً فَأَدْرَكَ الشَّرَفَ وَالْمَالَ فِي الدُّنْيَا, وَأَنَّهُ لَبِثَ كَهَيْئَتِهِ حَتَّى بَلَغَ سِنًّا, وَأَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ نَائِمٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَلَى فِرَاشِهِ إِذْ تَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: «هَبْ هَؤُلَاءِ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ, أَلَيْسَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ مَا ابْتَدَعْتُهُ؟ فَقَدِ اقْتَرَبَ الْأَجَلُ, فَلَوْ أَنِّي تُبْتُ». " فَبَلَغَ مِنَ اجْتِهَادِهِ فِي التَّوْبَةِ أَنَّهُ عَمَدَ فَخَرَقَ تَرْقُوَتَهُ, ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا سِلْسِلَةً, ثُمَّ أَوْثَقَهَا إِلَى آسِيَةٍ مِنْ أَوَاسِي الْمَسْجِدِ, وَقَالَ: «لَا أَبْرَحُ مَكَانِي حَتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ فِيَّ تَوْبَةً أَوْ أَمُوتَ مَوْتَ الدُّنْيَا». وَكَانَ لَا يَسْتَنْكِرُ الْوَحْيَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأُوحِيَ وَحْيُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي شَأْنِهِ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: «**إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَصَبْتَ ذَنْبًا فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ لَتُبْتُ عَلَيْكَ بَالِغًا مَا بَلَغَ, وَلَكِنْ كَيْفَ بِمَنْ أَضْلَلْتَ مِنْ عِبَادِي فَمَاتُوا فَأَدْخَلْتَهُمْ جَهَنَّمَ, فَلَا أَتُوبُ عَلَيْكَ**»[3].

المطلب الثالث: أقوال العلماء وحكاية الإجماع

حكى أبو الحسين الملطي الإجماع على أن الجهل مناط مكفر فقال: "ومعنى ذَلِك أن معتزلة بَغْدَاد وَالْبَصْرَة وَجَمِيع أهل الْقبْلَة لَا اخْتِلَاف بَينهم أن من شكّ فِي كَافِر فَهُوَ كَافِر **لِأَن الشاك فِي الْكفْر لَا**

[1] سنن ابن ماجة برقم 3531

[2] فتح المجيد 119/1

[3] شرح أصول الاعتقاد للالكائي برقم 287

إيمَان لَهُ لِأَنَّهُ لَا يعرف كفرا من إيمَان فَلَيْسَ بَين الْأمة كلهَا الْمُعْتَزلَة وَمن دونهم خلاف أَن الشاك فِي الْكَافِر كَافِر"[1].

وقال المروزي:" وَالْجَهْلُ بِاللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ كُفْرٌ قَبْلَ الْخَبَرِ وَبَعْدَ الْخَبَرِ"[2].

وقَالَ الشَّافِعِيُّ:" لَوْ عُذِرَ الْجَاهِلُ، لِأَجْلِ جَهْلِهِ لَكَانَ الْجَهْلُ خَيْرًا مِنْ الْعِلْمِ إذْ كَانَ يَحُطُّ عَنْ الْعَبْدِ أَعْبَاءَ التَّكْلِيفِ وَيُرِيحُ قَلْبَهُ مِنْ ضُرُوبِ التَّعْنِيفِ، فَلَا حُجَّةَ لِلْعَبْدِ فِي جَهْلِهِ بِالْحُكْمِ بَعْدَ التَّبْلِيغِ وَالتَّمْكِينِ، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾"[3].

وقال يحي بن سلام: "**خاطئين يعني مشركين وذلك قوله في طسم القصص**: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾[القصص 8] **يعني مذنبين بالشرك. وقَالَ في سورة الحاقّة** ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾[الحاقة 27] **المذنبون بالشرك"**[4].

وقال الدارمي:" وَيْحَكَ أَيُّهَا الْمُعَارِضُ! أَوَلَمْ تَزْعُمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي التَّوْحِيدِ إِلَّا الصَّوَابُ؟ أَفَتَأْمَنُ الجَوَابَ فِي هَذِهِ العَمَايَاتِ أَنْ تَجُرَّكَ إِلَى الخَطَإِ فِي التَّوْحِيدِ، **وَالخَطَأُ فِيهِ كُفْرٌ**؟ فَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ نَفْسِكَ لِمَا نَدَبْتَ إِلَيْهِ غَيْرَكَ مِنَ الخَوْضِ فِيهِ وَمَا أَشْبَهَهُ؟"[5]، وفيه تنصيص على أنه لا يجوز في التوحيد إلا الصواب فمن أخطأ أو قلد أو جهل لا يسمى موحدا.

[1] التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع **40/1**

[2] تعظيم قدر الصلاة ص 520.

[3] المنثور من القواعد 17/2.

[4] التصاريف لتفسير القرآن 301/1

[5] النقض لبشر المريسي 326/1

قال برهان الدين البقاعي:" فإنه لم يأت نبي إلا بتكفير المشركين - كما أشار إلى ذلك ﷺ بقوله «الأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[1]، وسبق معنا أن أقوامهم قد وصفهم الله بالجهل في مواضع.

وقال السمعاني:" وقد تظاهرت الدلائل القاطعة على ثبوت نبوة نبينا محمد ﷺ ولهذا لم يبق لأحد عذر في العالم بترك قبول الإسلام **ولأجل قيام الحجج وتظاهر البراهين والأدلة ينزل جميع الكفار منزلة المعاندين المكابرين** ولولا أن الأمر على هذا الوجه لعذروا بالجهل **وقد اجتمعت الأمة أنه لا عذر لأحد في شيء من الإسلام وشرعه**"[2].

وقال البربهاري:" واعلم - رحمك الله - أن أهل العلم لم يزالوا يردون قول الجهمية حتى كان في خلافة بني فلان تكلم الرويبضة في أمر العامة، وطعنوا على آثار رسول الله ﷺ، وأخذوا بالقياس والرأي، وكفروا من خالفهم، **فدخل في قولهم الجاهل والمغفل والذي لا علم له حتى كفروا من حيث لا يعلمون**، فهلكت الأمة من وجوه، وكفرت من وجوه، وتزندقت من وجوه، وضلت من وجوه، [وتفرقت] وابتدعت من وجوه، إلا من ثبت على قول رسول الله ﷺ وأمره وأمر أصحابه، ولم يخطئ أحدا منهم، ولم [يجاوز] أمرهم، ووسعه ما وسعهم، ولم يرغب عن طريقتهم ومذهبهم، وعلم أنهم كانوا على الإسلام الصحيح والإيمان الصحيح، فقلدهم دينه [واستراح]"[3].

---

[1] نظم الدر 268/6

[2] قواطع الأدلة 387/2

[3] شرح السنة 95

وقال عبد الله حَدَّثَنِي غِيَاثُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ، يَقُولُ: " الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَنْ قَالَ: مَخْلُوقٌ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ شَكَّ فِي كُفْرِهِ فَهُوَ كَافِرٌ "[1]، وقال ابن بطة : «من قال كلام الله مخلوق فهو كافر حلال الدم ومن شك في كفره ووقف في تكفيره فهو كافر"[2]، وقال سلمة بن شبيب النيسابوري محدث أهل مكة لما سئل عن الحلواني حين قال لا أكفر من وقف في القرآن: "يرمى في الحش من لم يشهد بكفر الكافر فهو كافر"[3].

قلت: وهذا في مقالة خلق القرآن فكيف بالشرك بالله تعالى!!

قال أبو زيد الدبوسي:" وكذلك لا نرى نحن أحدا من الكفار إلا ويخبر عن الصانع، وإنما كان كفرهم بوصفهم الله تعالى بما لا يليق به من الولد والشريك وغل الأيدي ونحوها مما حكى الله عنها **والعذر بلا خلاف منقطع عن مثله** أو كان الكفر بإنكارهم البعث للجزاء"[4].

وقال ابن فرحون:" مَسْأَلَةٌ: وَمَنْ عَبَدَ شَمْسًا أَوْ قَمَرًا أَوْ حَجَرًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ، وَلَا يُسْتَتَابُ إذَا كَانَ يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ وَيُسِرُّ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا تُعْرَفُ تَوْبَتُهُ"[5].

وحكى الإجماع ابن القيم فقال:" الطبقة السابعة عشرة: طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعاً لهم يقولون: إنا وجدنا آباءَنا على أُمة، ولنا أُسوة بهم. ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساءِ المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لنا نصب له أُولئك أنفسهم من السعى فى إطفاءِ نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة

[1] السنة لعبد الله برقم 25

[2] الإبانة 129

[3] أخرجه الخطيب في تاريخه وابن حجر في التهذيب.

[4] تقويم الأدلة 532/3

[5] تبصرة الحكام 279/2

الدواب، وقد اتفقت الأُمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا **جهالاً مقلدين لرؤسائهم و أئمتهم**"[1]، وهذه حكاية إجماع.

وقال: والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسوله واتباعه فيما جاء به فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم وإن لم يكن كافرا معانداً فهو كافر جاهل"[2].

وقال محمد بن عبد الوهاب: اعلم ــ رحمك الله ــ أن هذه الكلمة هي الفارقة بين الكفر والإسلام وهي كلمة التقوى وهي العروة الوثقى وهي التي جعلها إبراهيم ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها فإن المنافقين يقولونها وهم تحت الكفار في الدرك الأسفل من النار مع كونهم يصلون ويتصدقون، ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض ما خالفها ومعاداته كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم،: "من قال لا إله إلا الله مخلصا". وفي رواية "خالصاً من قلبه" وفي رواية "صادقاً من قلبه" وفي حديث آخر "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله" إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جهالة أكثر الناس بهذه الشهادة"[3].

وقال تعليقاً على حديث "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله" وهذا من أعظم ما يبين معنى: لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف بذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها وياله من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع"[4].

[1] طريق الهجرتين 441/1
[2] نفس المرجع
[3] مجموعة رسائل في التوحيد 363/1
[4] التوحيد 26/1

وقال أبا بطين: فلا عذر لأحد بعد بعثة محمد ﷺ في عدم الإيمان به وبما جاء به، بكونه لم يفهم حجج الله وبيناته لأن الله سبحانه أخبر عن الكفار بعدم الفهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ وقال: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ وقال: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، والآيات في وصفهم بغاية الجهل، كثيرة معلومة، فلم يعذرهم تعالى بكونهم لم يفهموا، بل صرح بتكفير هذا الجنس، وأنهم من أهل النار، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾، وقال:" **فالمدعي أن مرتكب الكفر متأولا، أو مجتهدا أو مخطئا، أو مقلدا أو جاهلا، معذور، مخالف للكتاب والسنة، والإجماع بلا شك**، مع أنه لا بد أن ينقض أصله، فلو طرد أصله كفر بلا ريب، كما لو توقف في تكفير من شك في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك."[1].

وقال:" **ولازم هذه الدعوى: أنه ليس لله حجة على أحد إلا المعاند**، مع أن صاحب هذه الدعوى لا يمكنه طرد أصله، بل لا بد أن يتناقض، فإنه لا يمكنه أن يتوقف في تكفير من شك في رسالة محمد ﷺ أو شك في البعث، أو غير ذلك من أصول الدين، والشاك جاهل؛

[1] الدرر السنية 73/12

والفقهاء يذكرون في كتب الفقه حكم المرتد: أنه المسلم الذي يكفر بعد إسلامه، نطقا أو فعلا أو شكا أو اعتقادا، وسبب الشك الجهل.
ولازم هذا: أنا لا نكفر جهلة اليهود والنصارى، والذين يسجدون للشمس والقمر والأصنام لجهلهم، ولا الذين حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار، لأنا نقطع أنهم جهال؛ وقد أجمع المسلمون على كفر من لم يكفر اليهود والنصارى، أو شك في كفرهم، ونحن نتيقن أن أكثرهم جهال"[1].

۞ وقال عبد الله وإبراهيم ابنا عبد اللطيف وسليمان بن سحمان:" وأما دعاء الصالحين، والاستغاثة بهم، وقصدهم في الملمات والشدائد، فهذا لا ينازع مسلم في تحريمه، والحكم بأنه من الشرك الأكبر؛ فليس في تكفيرهم، وتكفير الجهمية قولان. وأما الإباضية في هذه الأزمان، فليسوا كفرقة من أسلافهم، والذي بلغنا أنهم على دين عباد القبور، وانتحلوا أموراً كفرية لا يتسع ذكرها هنا، ومن كان بهذه المثابة، فلا شك في كفره؛ فلا يقول بإسلامهم إلا مصاب في عقله ودينه، ولا تصح خلف من لا يرى كفر هؤلاء الملاحدة، أو يشك في كفرهم"[2].

البَابُ الثَّانِي

الردود على شبهات العاذرية

[1] الدرر السنية 69/12
[2] الدرر السنية 410/4

ونعرض في هذا الباب أبرز ما يستمسك به من يعذر بالجهل في الشرك بالله من الشبهات، ونبين تهافت ما استدلوا به حتى يتضح لطالب الحق حال أهل الزيغ والبدع الذين يستمسكون بالمتشابه ويتركون المحكم من النصوص التي ذكرناها في الباب الأول وحالهم كما روي عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران7]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ - أَوْ فَهُمْ - فَاحْذَرُوهُمْ »[1].

المطلب الأول : شبهة الذي شك في قدرة الله تعالى

روي في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ

[1] رواه أحمد برقم 26197

الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ " وَقَالَ غَيْرُهُ: «مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ»[1].

قال ابن عبد البر:" وَقَالَ آخَرُونَ **أَرَادَ بِقَوْلِهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَدَرِ الَّذِي هُوَ الْقَضَاءُ وَلَيْسَ مِنْ بَابِ الْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ فِي شَيْءٍ** قَالُوا وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذِي النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ وَلِلْعُلَمَاءِ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّهَا مِنَ التَّقْدِيرِ وَالْقَضَاءِ وَالْآخَرُ أَنَّهَا مِنَ التَّقْتِيرِ وَالتَّضْيِيقِ وَكُلُّ مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ فَهُوَ جَائِزٌ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْحَدِيثِ فِي قَوْلِهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ فَأَحَدُ الْوَجْهَيْنِ تَقْدِيرُهُ كَأَنَّ الرَّجُلَ قَالَ لَئِنْ كَانَ قَدْ سَبَقَ فِي قَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ أَنْ يُعَذِّبَ كُلَّ ذِي جُرْمٍ عَلَى جُرْمِهِ لَيُعَذِّبُنِي اللَّهُ عَلَى إِجْرَامِي وَذُنُوبِي عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ غَيْرِي وَالْوَجْهُ الْآخَرُ تَقْدِيرُهُ وَاللَّهِ لَئِنْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيَّ وَبَالَغَ فِي مُحَاسَبَتِي وَجَزَائِي عَلَى ذُنُوبِي لَيَكُونَنَّ ذَلِكَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ يُحَرَّقَ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنْ إِفْرَاطِ خَوْفِهِ"[2].

وقد زعم بعضهم بناء فهم خاطئ لهذا الحديث أن من جهل أو تأول في فرد من أفراد الصفة وجزئيتها فلا يكفر حتى ينكر أصل الصفة!!

وهذا الفهم لا شك في بطلانه ولا يكون مرادا للنبي ﷺ في هذا الحديث لأنه يعارض أصولا مقررة في كتاب الله تعالى ومنها قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

[1] رواه البخاري برقم 3481، ومسلم برقم 2756

[2] التمهيد 43/18

﴾[فصلت 23]، روى البخاري عن ابن مسعود، ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ ﴾ [فصلت: 22] الآية، قال: " كَانَ رَجُلاَنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ ثَقِيفَ - أَوْ رَجُلاَنِ مِنْ ثَقِيفَ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ - فِي بَيْتٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا؟ قَالَ: بَعْضُهُمْ يَسْمَعُ بَعْضَهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَئِنْ كَانَ يَسْمَعُ بَعْضَهُ لَقَدْ يَسْمَعُ كُلَّهُ، فَأُنْزِلَتْ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ ﴾ [فصلت: 22] الآيَةَ"[1]، ومحل الشاهد أن هؤلاء الكفار قد شكوا في فرد من أفراد الصفة وهو سماع الله لحديثهم فأكفرهم الله تعالى، ويوضحه أكثر ما رواه الطبري عن عبد الله بن مسعود، قال: كنت مستترا بأستار الكعبة، فدخل ثلاثة نفر، ثَقَفيان وقُرشيّ، أو قُرشيان وثَقَفي، كثير شحوم بطونهما، قليل فقه قلوبهما، فتكلموا بكلام لم أفهمه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ فقال الرجلان: **إذا رفعنا أصواتنا سمع، وإذا لم نرفع لم يسمع**، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ ﴾... إلى آخر الآية"[2]، وهذا شك في أفراد الصفة حيث ظنوا أنهم إن خفضوا أصواتهم لم يسمعها الله فقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ فرتب على ذلك الخسران والخلود في النيران ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾.

[1] رواه البخاري برقم 4816

[2] رواه الطبري 455/21

المطلب الثاني: شبهة طلب بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾[الأعراف 138].

وهذه الآية مما يستدل به الجهمية على مشروعية العذر بالجهل في الشرك الأكبر ويضربون النصوص بعضها ببعض كفعل الزنادقة وأهل البدع في نصرة بدعتهم، ونقول أنَّه لم يُتطرق في الآية إلى ذكر حكم الفاعلين بل ذكر الله عزَّ وجل قبح الفعل وشناعة القول سواء مما وقع من القوم الذين يعكفون على الأصنام أو ممن سأل موسى مسألة الشرك أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة والتي هي مقالة شرك كما أخرج عبد بن حميد وَأَبُو الشَّيْخ عَن قَتَادَة فِي قَوْله ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ قَالَ: يَا سُبْحَانَ الله قوم أنجاهم الله من الْعُبُودِيَّة وأقطعهم الْبَحْر وَأهْلك عدوهم وأراهم الْآيَات الْعِظَام **ثمَّ سَأَلُوا الشّرك صراحية**"[1].

فليس في هذا النص ذكر حكم أصحاب المقالتين وقد ورد في غير هذا النص ما يقطع بحكم الفاعلين وأنهم مشركين بفعلهم أو مقالتهم ولا يعذرون بجهلهم، وليس معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ عذر بالجهل لأن الجهل قرين الشرك كما ورد في النصوص المتوافرة وبينا ذلك في رسالة العذر بالجهل، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد الآيات التي أريناهموها، والعبر التي عاينوها على يدي نبيّ الله موسى، فلم تزجرهم تلك الآيات، ولم تعظهم تلك العبر والبينات! حتى قالوا = مع معاينتهم من الحجج ما يحق أن يذكَرَ معها البهائم، إذ مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، يقول: يقومون على مُثُل لهم يعبدونها من دون الله "اجعل لنا" يا

[1] نظم الدرر 533/3

موسى "إلهًا"، يقول: مثالا نعبده وصنما نتخذُه إلهًا، كما لهؤلاء القوم أصنامٌ يعبدونها. ولا تنبغي العبادة لشيء سوى الله الواحد القهار. وقال موسى صلوات الله عليه: إنكم أيها القوم قوم تجهلون عظمة الله وواجبَ حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السماوات والأرض"[1].

ولا شك أن قول القائلين من قوم موسى مقالة الشرك كان أول شأنهم في عبادة العجل وقد عبدوها بعد ذلك فهل عذرهم الله بالجهل؟ قال ابن جريج: "على أصنام لهم"، قال: تماثيل بقر. فلما كان عجل السامريّ شبِّه لهم أنه من تلك البقر، فذلك كان أوّل شأن العجل: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[2].

قال في مفاتح الغيب:" اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ أَنْوَاعَ نِعَمِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْ أَهْلَكَ عَدُوَّهُمْ وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِالنِّعْمَةِ الْعُظْمَى وَهِيَ أَنْ جَاوَزَ بِهِمُ الْبَحْرَ مَعَ السَّلَامَةِ: وَلَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى فِي سَائِرِ السُّوَرِ كَيْفَ سَيَّرَهُمْ فِي الْبَحْرِ مَعَ السَّلَامَةِ وَذَلِكَ بِأَنْ فَلَقَ الْبَحْرَ عِنْدَ ضَرْبِ مُوسَى الْبَحْرَ بِالْعَصَا وَجَعَلَهُ يَبَسًا بَيَّنَ **أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا شَاهَدُوا قَوْمًا يَعْكُفُونَ عَلَى عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ جَهِلُوا وَارْتَدُّوا وَقَالُوا: / لِمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا شَاهَدُوا الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةَ الَّتِي أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ: ثُمَّ شَاهَدُوا أَنَّهُ تَعَالَى أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ وَخَصَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْوَاعِ السَّلَامَةِ وَالْكَرَامَةِ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ وَالْمَقَامَاتِ يَذْكُرُونَ هَذَا الْكَلَامَ الْفَاسِدَ الْبَاطِلَ كَانُوا فِي نِهَايَةِ الْجَهْلِ وَغَايَةِ الْخِلَافِ"[3].

---

[1] تفسير الطبري 80/13

[2] تفسير الطبري 15053

[3] مفاتح الغيب 349/14

ونقول أن طلب بني إسرائيل هو شرك بالله عزَّ وجل وكفر به كما أخرج عبد بن حميد وَأَبُو الشَّيْخ عَن قَتَادَة فِي قَوْله ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ قَالَ: يَا سُبْحَانَ الله قوم أنجاهم الله من الْعُبُودِيَّة وأقطعهم الْبَحْر وَأهْلك عدوهم وأراهم الْآيَات الْعِظَام **ثمَّ سَأَلُوا الشّرك صراحية**"[1].

فليس في هذا النص ذكر حكم أصحاب المقالتين وقد ورد في غير هذا النص ما يقطع بحكم الفاعلين وأنهم مشركين بفعلهم أو مقالتهم ولا يعذرون بجهلهم، وليس معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ عذر بالجهل!! لأن الجهل قرين الشرك كما ورد في النصوص المتوافرة، وقد ورد هذا الوصف ﴿ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ في كتاب الله في وصف الاقوام المشركة كما قال نوح لقومه: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود 29]، وكما قال لوط لقومه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾، وهود لما قال لقومه: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

[1] نظم الدرر 533/3

عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأحقاف 23] ... ففي هذه الآيات قد وصف الأنبياء أقوامهم بالجهل وهو قرين الشرك فما كان شركهم إلا بجهلهم لحق الله عز وجل وكان الجهل مناطا لكفرهم كما ورد في آيات كثيرة وذكرناه مفصلا في غير هذا الموضع.

المطلب الثالث: شبهة ذات أنواط

روي عن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ ــ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ[1] ــ ولِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِالسِّدْرَةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأعراف: 138]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[2]

والحديث رواه الترمذي والإمام أحمد قال حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ، حَدَّثَنِي عُقَيْلُ بْنُ خَالِدٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سِنَانِ بْنِ أَبِي سِنَانٍ الدُّؤَلِيِّ ثُمَّ الْجُنْدَعِيِّ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ به، والحديث مداره

[1] وهذه نكارة في المتن فأبي واقد قد شهد بدرا كما ذكر ذلك البخاري والحاكم وغيره.

[2] أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم: (2180)، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في «مسنده»: (21390)، وعند الترمذي وأبي يعلى أن ذلك كان عند خروجهم إلى خيبر، وهو خطأ صوابه "حنين"

علـى سـنان بـن أبـي سـنان الـدؤلي وقـد تفـرد بـه[1] وهـو مجهـول لا يتحمـل التفـرد، قـال العقيلـي عُمَـرُ بْـنُ دَاوُدَ عَـنْ سِـنَانَ بْـنِ أَبِـي سِـنَانَ، كِلَاهُمَـا مَجْهُـولٌ،"[2]، وقـال أَحْمَـد بْـن عَبـد الله العِجْلِـيّ : مـدني تـابعي ثقة، وذكره ابنُ حِبَّان في كتاب "الثقات"[3] .

قلـت: أمـا ابـن حبـان والعجلـي فمشـهوران بالتسـاهل فـي توثيـق المجاهيـل ويؤخـذ بتـوثيقهم لغيـر المجاهيـل، قـال المعلمـي:" توثيـق العجلـي وجدتـه بالاسـتقراء كتوثيـق بـن حبـان تمامـا أو أوسـع ... ـ إلـى أن قـال ـ وكـذا توثيـق ابـن سـعد فـإن أغلـب مادتـه مـن الواقـدي المتـروك كمـا ذكـر ابـن حجر في مقدمة الفتح عند ترجمة عبد الرحمن بن شريح"[4].

ثـم نقـول أنَّ هـذا الحـديث لا حجـة فيـه علـى العـذربالجهـل فـي الشـرك الأكبـر لأن الصـحابة لـم يطلبـوا عـين الشـرك بـالله تعـالى يقينـا ـ وهـو طلـب النصـرة والبركـة مـن ذات الشـجرة وحاشـاهم أن يطلبـوا ذلـك ـ ولا طلبـوا عبـادة تلـك الشـجرة والتبـرك بهـا، بـل سـألوا عـن الإذن في أن تكـون لهـم شـجرة ينوطـون بهـا السـلاح ويسـتمدُّون مـن الله البركـة والنصـر عنـدها لا منهـا ، ولا شـك أن هنـاك فرقـا ظـاهرا بـين طلـب النصـر والقُـوَّة والبركـة مـن الشـجرة وهـو الشـركُ الأكبـر لصـرف عبـادة الـدعاء والسـؤال لغيـر الله تعـالى، وبـين الطلـب مـن الله ذلـك عنـدها، فهـذا إنمـا يـدخل فـي البدعـة والشـرك الأصـغر كمـن يـذبح لله فـي مكـان يُـذبح فيـه لغيـر الله، قـال محمـد بـن عبـد الوهـاب في فوائـد هـذا الحـديث:" الحاديـة عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر **لأنهم لم يرتدوا بهذا**"[5].

[1] ورواه الأزرقي في أخبار مكة بسند ضعيف جدا لا يصلح للمتابعات قال حَدَّثَنِي جَدِّي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنِ الْوَاقِدِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ به

[2] الضعفاء للعقيلي 156/3

[3] تهذيب الكمال 12:154

[4] « الأنوار الكاشفة ص ٦٨»

[5] كتاب التوحيد 1:67

ويوجه الحديث ـ على فرض صحته ـ على ما يوافق الأصول لا على ما يهدمها كما هو صنيع الجهمية في معارضة الأصول بمثل هذه القضايا العينية، فأصحابَ رسول الله ﷺ لم يطلبوا الشركَ الأكبرَ كما طلبه بني إسرائيل، وإنما طلبوا المشابهة في الفعل مع قصد الله في الطلب حيث قالوا: «اجعل لنا ذات أنواط»، وهذا القول يشبه قول بنو إسرائيل في وجه من الوجوه: «اجعل لنا إلهًا»، فاتخاذ ذات أنواط يشبه اتخاذ الآلهة من دون الله لا أنه هو بنفسه، فحذَّرهم النبيُّ ﷺ وغلَّظ عليهم السؤال مع أنهم طلبوا ذلك على جهة الاستفتاء ولم يفعلوا، والتغليظ يرد كذلك في الشرك الأصغر، ومنه قوله ﷺ في قول من قال له: «ما شاء الله وشئت»، فقال: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟»[1]، وهذا ليس من التنديد المطلق ولكن النبي ﷺ أجراه على التغليظ زجرا لهم عن هذه المشابهة خشية أن يؤول أمرها إلى الشرك الأكبر، فسد ذرائع الشرك الأكبر وقطع مادته من مقاصد الشريعة لأنَّ البدع بريد الشرك الأكبر، قال محمد بن عبد الوهاب:" فأنكر ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها أسلحتهم، **فكيف بما هو أطم من ذلك من الشرك بعينه**؟"[2].

ثم نقول أنَّ التشابه في وجهٍ أو فردٍ لا يلزم منه التشابه من كلِّ وجهٍ وفردٍ، قال الشاطبي:" قَوْلُهُ: «فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا» ..." الْحَدِيثَ. فَإِنَّ اتِّخَاذَ ذَاتِ أَنْوَاطٍ يُشْبِهُ اتِّخَاذَ الْآلِهَةِ مِنْ دُونِ

[1] أخرجه أحمد في «مسنده»: (1842)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (5906)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والحديث حسّنه العراقي في «تخريج الإحياء»: (3/ 128).

[2] الدرر السنية 403/9

اللَّهِ، لَا أَنَّـــهُ هُـــوَ بِنَفْسِـــهِ فَلِـــذَلِكَ لَا يَلْـــزَمُ الِاعْتِبَـــارُ بِالْمَنْصُـــوصِ عَلَيْـــهِ مَـــا لَـــمْ يَنُصَّ عَلَيْهِ مِثْلُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ"[1].

وقد ورد مثل ذلك في النصوص ومنه:

❀ عـــن عبـــد الله بـــن عبـــاس قـــال النبـــي ﷺ: «مُـــدْمِنُ الخَمْـــرِ كَعَابِـــدِ وَثَـــنٍ»[2]، فوجـــه التشـــابه بينهمـــا أنَّ المـــدمنَ لا يكـــاد يمكنـــه أن يَـــدَعَ الخمـــرَ، كمـــا لا يـــدع عابِـــدُ الـــوثن عبادتـــه، ولـــم يقـــل أحـــدٌ إنَّ مـــدمنَ الخمر مشركٌ بهذه المشابهة في بعض الأفراد،

❀ وعـــن علـــيٍّ رضي الله عنه لَمَّـــا مَـــرَّ علـــى قـــومٍ يلعبـــون بالشـــطرنج قـــال: «مـــا هـــذه التماثيـــل التـــي أنـــتم لهـــا عـــاكفون؟»[3]، ولـــيس العكـــوف هنـــا عكـــوف عبـــادة فشـــبَّهم بالعـــاكفين علـــى التماثيـــل، لـــذلك فالتشـــبيه مـــن هـــذا الوجـــه لا يلزم بالضرورة المشابهة بينهما من كلِّ وجهٍ.

❀ وقولـــه ﷺ: «تَـــرَوْنَ رَبَّكُـــمْ عَيَانًـــا كَمَـــا تَـــرَوْنَ القَمَـــرَ لَيْلَـــةَ البَـــدْرِ» [4] قـــال ابـــن أبـــي العـــزّ: «وَلـــيس تشـــبيه رؤيـــة الشـــمس والقمـــر تشـــبيهًا لله، بـــل هـــو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي»[5].

[1] الاعتصام 2:752

[2] أخرجـــه ابـــن ماجـــه فـــي «ســـننه» كتـــاب الأشـــربة، بـــاب مـــدمن الخمـــر: (3375)، مـــن حـــديث أبـــي هريـــرة رضـــي الله عـــنهم، وأخرجـــه أحمـــد فـــي «مســـنده»: (2449)، مـــن حـــديث ابـــن عبـــاس رضـــي الله عنهمـــا. «فالحـــديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح، والله أعلم»

[3] (3 - أخرجـــه البيهقـــي فـــي ســـننه، كتـــاب «الشـــهادات» بـــاب الاخـــتلاف فـــي اللعـــب بالشـــطرنج (21532)، وفـــي شـــعب الإيمـــان (6518)، عـــن الأصـــبغ بـــن نباتـــة عـــن علـــي رضـــي الله عنـــه. وأخرجـــه البيهقـــي فـــي «ســـننه» (21532)، والآجـــري فـــي «تحـــريم النـــرد» (ق43/ 1)، وابـــن أبـــي الـــدنيا فـــي «ذم الملاهـــي» (47)، مـــن طريـــق ميســـرة بـــن حبيـــب. والحـــديث صـــحَّحه ابـــن حـــزم فـــي «المحلـــى»: (9/ 63)، وقـــال عنـــه ابـــن تيميـــة فـــي «مجمـــوع الفتـــاوى» (32/ 244): «ثابـــت»، وصـــحَّحه ابـــن القـــيم فـــي «الفروســـية»: (310)، وضـــعَّفه الألبـــاني فـــي «إرواء الغليـــل»: (8/ 288). وانظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: (395).)

[4] » (5 - أخرجـــه البخـــاري فـــي «صـــحيحه» كتـــاب «التوحيـــد»، بـــاب قـــول الله وجـــوه يومئـــذ ناضـــرة إلـــى ربهـــا نـــاظرة: (6998)، مـــن حـــديث جريـــر بـــن عبـــد الله رضـــي الله عنـــه، وانظـــر «ظـــلال الجنـــة فـــي تخـــريج الســـنة» للألباني: حديث رقم: (461).)،

[5] «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز: (1/ 219).).

وضمن هذا المعنى يقول ابن تيمية :«ولما كان للمشركين شجرةٌ يعلقون عليها أسلحتهم، ويسمونها ذات أنواط، فقال بعض الناس: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: اللهُ أَكْبَرُ، قُلْتُمْ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ?اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ?، إِنَّهَا السُّنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» فأنكر النبيُّ ﷺ **مجرَّدَ مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلِّقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أعظم من ذلك من مشابهتهم المشركين، أو هو الشرك بعينه؟**

فمن قصد بقعةً يرجو الخيرَ بقصدها، ولم تستحِب الشريعة ذلك، فهو من المنكرات، وبعضه أشدُّ من بعض، سواء كانت البقعة شجرة أو عين ماء، أو قناة جارية أو جبلاً أو مغارة، وسواء قصدها ليُصليَ عندها، أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله سبحانه عندها، أو ليتنسَّك عندها، بحيث يخصُّ تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يُشرع تخصيص تلك البقعة به لا عينًا ولا نوعًا»[1].

المطلب الرابع: شبهة حادثة عائشة

روى مسلم بسنده إلى ابْنُ جُرَيْجٍ قال أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللهِ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ أُمِّي قَالَ: فَظَنَنَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أُمَّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ

[1] اقتضاء الصراط المستقيم 2/ 157 - 158

رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا، وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ، وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إِلَّا أَنِ اضْطَجَعْتُ فَدَخَلَ، فَقَالَ: «مَا لَكِ؟ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً» قَالَتْ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ، قَالَ: «لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي، ثُمَّ قَالَ: «أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟» **قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ نَعَمْ**، قَالَ: " فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ "، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ " قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ "[1].

ويزعم الجهمي أن عائشة رضي الله عنها شكت في علم الله وعذرها النبي ﷺ؟ وقولها "مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ نَعَمْ" تقرير للعلم وهو في الأصول، قال شارح مسلم: قالت: **"مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ نَعَمْ"** هكذا هو في الأصول وهو صحيح **وكأنها لما قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، صدقت نفسها فقالت: نعم**"[2].

[1] رواه مسلم برقم 669/2

[2] صحيح مسلم بشرح النووي 7/ 44.

ولو كانت عائشة والعياذ بالله تشك في هذه الصورة الدقيقة هل يتصور عدم إنكار النبي ﷺ عليها؟ وقد أنكر ﷺ على من هم حدثاء عهد بإسلام إنكاراً شديداً في حديث ذات أنواط وشبّهم ببني إسرائيل في قولهم:« اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة »وهو دون هذه المقالة كما سبق معنا، وأنكر النبي ﷺ على من قال ما شاء الله وشئت كما روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ: " أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ "[1].

فلما لم ينكر النبي ﷺ على عائشة دل على أنها قالتها على صيغة الإقرار والتصديق ومن المعلوم أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة بلا خلاف بين العلماء.

المطلب الخامس: شبهة شك الحواريين في القدرة.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة 113].

[1] رواه الإمام أحمد برقم 1839

الذي عليه جمهور المفسرين أن الحواريين لم يحدث لهم شك في قدرة الله تعالى، فعلى قراءة ابن عباس وعلي وعائشة ومعاذ بن جبل وجماعة من التابعين بالتاء : ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ﴾، قال الطبري: فقرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين: (هَلْ تَسْتَطِيعُ) بالتاء (رَبَّكَ) بالنصب، بمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك؟ أو: هل تستطيع أن تدعوَ ربَّك؟ أو: هل تستطيع وترى أن تدعوه؟ **وقالوا: لم يكن الحواريون شاكِّين أن الله تعالى ذكره قادرٌ أن ينزل عليهم ذلك، وإنما قالوا لعيسى: هل تستطيع أنت ذلك؟**

❁ عن ابن عمر، عن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة: كان الحواريون لا يشكّون أن الله قادر أن ينزل عليهم مائدة، ولكن قالوا: يا عيسى هل تَستطيع ربَّك؟"[1]

❁ وعن سعيد بن جبير: أنه قرأها كذلك: ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ ، وقال: تستطيع أن تسأل ربَّك. وقال: ألا ترى أنهم مؤمنون؟"[2].

❁ وعن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة: كان الحواريون لا يشكون أن الله قادر أن ينزل عليهم مائدة، ولكن قالوا: يا عيسى هل تستطيع ربك؟".[3]

[1] رواه الطبري برقم 12993

[2] رواه الطبري برقم 12994

[3] اهـ [أخرجه ابن جرير في تفسيره 3113/4، وانظر تفسير ابن أبي حاتم 1243/4، والنكت والعيون للماوردي 82/2، ومعالم التنزيل للبغوي 323/2].

❁ وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: "أقرأنا النبي ﷺ: ﴿هل تَستطيعُ ربَّكَ﴾ قال معاذ: وسمعت النبي ﷺ مراراً يقرأ بالتاء: ﴿هل تستطيع ربك﴾"[1].

وقال الفراء: "معناه: هل تقدر أن تسأل ربك"[2]، وقال الزجاج: "المعنى: هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله"[3].اهـ

القراءة الثانية: قال الطبري:" وقرأ ذلك عامة قُرأ المدينة والعراق: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالياء (رَبُّكَ)، بمعنى: أن ينزل علينا ربُّك، كما يقول الرجل لصاحبه: "أتستطيع أن تنهض معنا في كذا"؟ وهو يعلم أنه يستطيع، ولكنه إنما يريد: أتنهض معنا فيه؟ وقد يجوز أن يكون مرادُ قارئه كذلك: هل يستجيب لك ربك ويُطِيعك أنْ تنزل علينا؟"[4]، وقال ابن الأنباري: "لا يجوز لأحدٍ أن يتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة الله، وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه: هل تستطيع أن تقوم معي، وهو يعلم أنه مستطيع.."[5].اهـ

وقال ابن الحصار: وقوله سبحانه مخبرا عن الحواريين لعيسى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ليس بشك في الاستطاعة، وإنما هو تلطف في السؤال وأدب مع الله تعالى إذ ليس كل ممكن سبق في علمه وقوعه

[1] أخرجه بنحوه الترمذي (2930)، والحاكم 238/2، وانظر: الجامع لأحكام القرآن 286/8.

[2] زاد المسير 277/2.

[3] معاني القرآن للزجاج 220/2، والنكت والعيون 82/2، وانظر: الجامع لأحكام القرآن 286/8.

[4] تفسير الطبري 219/11

[5] زاد المسير 277/2

ولا لكل أحد، والحواريون هم كانوا خيرة من آمن بعيسى فكيف يظن بهم الجهل باقتدار الله تعالى على كل شيء ممكن"[1].اهـ

وجه أخر: وهناك وجه أخر رجحه الطبري في أن الحواريين شكوا في القدرة واستتابهم الله تعالى فقال: "وأولى القراءتين عندي بالصواب، قراءة من قرأ ذلك: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ بالياء (رَبُّكَ) برفع "الربّ"، بمعنى: هل يستجيب لك إن سألته ذلك ويطيعك فيه؟

وإنما قلنا ذلك أولى القراءتين بالصواب، لما بيّنّا قبلُ من أن قوله: "إذ قال الحواريون"، من صلة:" إذ أوحيت"، وأنَّ معنى الكلام: وإذ أوحيت إلى الحواريون أن آمنوا بي وبرسولي، إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك؟ فبيِّنٌ إذ كان ذلك كذلك، أن الله تعالى ذكره قد كرِه منهم ما قالوا من ذلك واستعظمه، وأمرهم بالتوبة ومراجعة الإيمان من قِيلهم ذلك، والإقرارِ لله بالقدرة على كل شيء، وتصديقِ رسوله فيما أخبرهم عن ربّهم من الأخبار. وقد قال عيسى لهم، عند قيلهم ذلك له، استعظامًا منه لما قالوا: "اتقوا الله إن كنتم مؤمنين". ففي استتابة الله إيّاهم، ودعائه لهم إلى الإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم عند قيلهم ما قالوا من ذلك، واستعظام نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كلمتهم الدلالةُ الكافيةُ من غيرها على صحة القراءة في ذلك بالياء ورفع "الرب"، إذ كان لا معنى في قولهم لعيسى، لو كانوا قالوا له:"هل تستطيع أن تسأل ربَّك أن ينزل علينا مائدة من السماء"؟ أن يُستكبر هذا الاستكبار"[2].

المطلب السادس: شبهة عموم رخصة الخطأ

[1] الجامع في أحكام القرآن 285/8.

[2] تفسير الطبري 220/11

ويستدل الجهمية بعموم رخصة الخطأ وأن الجهل فرد من أفراده وهو مرفوع عن الأمة في التوحيد والأصول واستدلوا بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]، وبقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[الأحزاب: 5]. وحديث: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر»، وحديث: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وقالوا أنَّ هذه رخصة عامة وهي تخصص عموم آيات الشرك؟

والمعلوم المتقرر أن هذه الرخصة ليست على عمومها وهي مخصصة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة وعلى هذا فهم الصحابة والأئمة من بعدهم.

وكل ما نقلناه من أدلة من الكتاب والسنة الباب الأول في عدم العذر بالجهل في الشرك بالله تعالى هو مخصص لهذه النصوص والإجماع قائم على ذلك: فقال ابن منده: **ذِكْرُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْمُجْتَهِدَ الْمُخْطِئَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ , عَزَّ وَجَلَّ ووَحْدَانِيَّتِهِ كَالْمُعَانِدِ** قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ضَلَالَتِهِمْ وَمُعَانَدَتِهِمْ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا فَقَالَ: كَفَرَةُ أَهْلُ الْكِتَابِ كَانَ أَوَائِلُهُمْ عَلَى حَقٍّ، فَأَشْرَكُوا بِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ وَابْتَدَعُوا فِي دِينِهِمْ، وَأَحْدَثُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ يَجْتَمِعُونَ فِي الضَّلَالَةِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى، وَيَجْتَهِدُونَ فِي الْبَاطِلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْهُمْ أَهْلُ حَرُورَاءَ"[1].

والاجتهاد في الأصول غير مقبول، والمخطئ في ذلك غير معذور بالإجماع، قال أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني:" ومن قول أهل السنة: أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، لأن الخوارج اجتهدوا في التأويل فلم يعذروا إذ خرجوا بتأويلهم عن الصحابة فسماهم عليه الصلاة والسلام مارقين من الدين، وجعل المجتهد في الأحكام مأجورا وإن أخطأ"[2]، وهذا إجماع على أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، فكيف بمن أداه اجتهاده إلى الشرك!!، قال اللالكائي «**أجمع أهل السنة و الجماعة على أنّه لا اجتهاد في مسائل الاعتقاد**، و أنه لا مجال للرأي وإعمال العقل فيها، و أنّه لا يسمع مسلم فيها إلا التسليم و الإتباع لعقيدة السلف الصالح، وأنّه من لم يسعه ما وسعهم فلا وسّع الله عليه»[3].

خاتمة

هذا ما تيسر جمعه في هذه المذكرة ... وهذه القضية تحتاج إلى جهود علمية كبيرة في بيانها للعامة الجاهليين والخاصة من الجهمية

[1] التوحيد لابن منده 314/1

[2] الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ ص،121

[3] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 315

المعاندين، وإن كانت هي في غاية الظهور والتقرير عند عموم المسلمين ... ونقول لهؤلاء المجادلين عن المشركين ـ بعد تقرير الأدلة الواضحة لكل صاحب فطرة سليمة ـ أنكم وإن جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فليس لكم ذلك يوم القيامة فأنتم وهم سواء في الكفر والشرك والضلال والمقام، قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾[النساء 109]، وقد أخبر الله تعالى أن المشرك سيأتي يوم القيامة يجادل عن نفسه ولا ينفعه ذلك بين يدي ربه وأنى له ذلك، قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٢٢ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ۝٢٣ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾[الأنعام 24]، لذلك من يسمي المشرك مسلما فقد كذب على الله وافترى عليه ويدخل في قوله تعالى:﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ ...

والبراءة من الشرك وتكفير المشركين هي من القضايا التي لا يصح الإسلام إلا بها والخطأ فيها أو الجهل بها أو التقليد للآباء الضالين غير مقبول بل هو الضلال البعيد والخسران المبين والشرك برب العالمين ... نسأل الله أن يهدي كل ضال ويبصر كل أعمى ويقطع دابر كل معاند والحمد لله رب العالمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين.


تمت